البعد الروحي لـ«تسع قصائد لإنسان آخر القرن»
للدكتور عبدالعزيز المقالح

(إهداء إلى الدكتور راتب سكر، ومقبول النعمة؛ أستاذين وصديقين)

فوزي علي صويلح*

يولد الشاعر موهوباً، والقارئ يترعرع متذوقاً لما يكتب ويقرأ بفطرة. وفي هذه القصائد أجد نفسي منغمراً في جو روحي شديد الصفاء ومترع بالألم الذي أسهمت في تصويره تلك المقاطع الشعرية، أو «القصائد» كما سمّاها شاعرنا الدكتور عبدالعزيز المقالح، الذي ذاع صيته شاعراً وأديباً وناقداً، فكانت تعبيراً لتجربة إنسان آخر القرن خلال حياته، بحيث جاء كل مقطع يشارك بجزء من تلك اللوحة الفنية الفياضة بالمشاعر الراقية، والتي جاءت لتطفئ جذوة الغرور والكبرياء التي قد تعتري هذا الإنسان خلال حياته.

(١)

استهلَّ الشاعر قصائده بالفزع إلى الأرض، وتنبيه إنسان آخر القرن إلى أن الحفاظ عليها ضرورة صحية؛ فهي الأم، كونها لا تقل أهمية عن العينين، وهي التي تحتضن هذا الإنسان، بل هي البيئة الخصبة التي ينشأ فيها ويترعرع عليها. فكان اللفظ يحمل دلالة بالغة الأهمية لهذه الأرض (الوطن)، إذ إنها محط جمال العينين واستمتاعهما.

«أُمّنا الأرض لما تزل مثل عينيك».

ثم يشير إلى النزعة العدوانية التي قد تفسد بشرورها جمال الأرض، وتعبث بخيراتها. فجاء الاستفهام «مَن...؟» توبيخ التوبيخ من تلك النزعة التي تحمل كل مخالب الفساد.

«مَن يعصم الناس منك ومن شر نفسك؟
من يعصم الورد من شر عينيك؟».

(٢)

بعد ذلك يأخذنا الشاعر إلى الجزء الثاني من أجزاء اللوحة الفنية المرهفة بالإحساس والمشاعر الفيّاضة التي تكسو هذه اللوحة، فيرسل هجاءه، المحفوف بالنصح والإرشاد، إلى إنسان آخر القرن، ليؤكد أن الشر الذي يقبع أحياناً في زاوية من

* ناقد من اليمن.

زوايا النفس البشـرية قد ولَّـد الخطايا والموبقات التـي تلتهم، بكل أوجاعها، كل مـا في الأرض من خير وجمال. بل وقد تتوسع على حساب الآخرين، وتمتد شـرور هذه النفس إلى الكائنـات البريئة؛ في حين قد نزلت الكتب وأرسـلت الرسـل تزكية للنفس الإنسانية التي لم يسلم من شرورها الأنبياء والمتقون. بيد أن الشـر سـرعان ما يخبو ويشـيخ ويذهب كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف.

«أنت من تشتكيك العصافير، والبحر، والنهر.
بل أنت من أعمل الناس في روح معراجه،
وتوعد شراً بكل النبيين والأتقياء،
تحول أرجوحة في الهواء».

(٣)

وفي هذا المقطع يرسـل الشاعر كلماته متوّجة بالمعاني الروحية السـامية للحياة، رغبة في توفير الطمأنينة للنفوس وإيجاد السلام للشعوب، مشحونة بالعبر والعظات لإنسـان آخر القرن، متوسـماً من هذا الكائن أن يسـمو بنفسـه إلى مـا يعود عليها بالنفع والتقـدم، تصاحبها كلمـات ذات إيقاعات نفسية قوية استمدت قوتها من قوة اللفظ.

«أنت تشبهني وأنا أشبه الآخرين؛
كلنا من تراب وماء أتينا من الأرض».

ثم تأتي إشـارة روحية مفعمـة باليقين إلى أن الأرض ومـا عليها إلى زوال ومآلها إلى بارئها، وأن ميزان الإنسـان هو بما ترتويه القلوب، فهي وعاء الخير ووعاء الشر.

«لا أحد سوف يأخذها معه،
سوف يأخذنا معها،
وفصل الخطاب بما ترتديه القلوب».

(٤)

وفـي المقطع الرابـع يُظهر الشـاعر علامات مضيئة، وقبسـات تحمل النور لإنسان آخر القرن، تهيئة للنفس الإنسانية، ورجاء التقرب من الخالق. فنراه ينسـج خيـوط الإنابة من تلـك المعضلات، رغبة في درء المفاسـد وإحـلال الفضائل ومغفرة الخطايا.

«قليل من الحزن يكفي ليرتعش القلب.
بعض من العشق يكفي لترتعش العين.
شيء من الخوف يكفي لترتعش الساق».

وبذلك فقد رسـم الشاعر الخطوط المستقيمة لإنسان آخر القرن للخروج من شروره وصقل قلبه، حتى يصبح إنسـاناً ذا رسالة سامية، بعد أن تجلد القلـب وصار خشـباً لا يفقه من أمـور حياته إلا الشر.

«خشباً صار قلبك،
عيناك من صدف لا ترى،
قدماك تحجرتا..
هل عرفت الحجر؟».

(٥)

يتدرج شـاعرنا طبيعياً، وتنسـاب الكلمات في جو روحي لتجسـد الفضيلة في نفس إنسان آخر القرن، ولتكسـر شـوكة الكبريـاء الفرعونية التي تعتري هذا الإنسان، وذلك بضرب الشاعر الفراشة مثلاً للتواضع والرقة والجمال؛

«لست وحدك من يكتب الشعر
في الأرض، هذي الفراشة -يا صاحبي-
كتبت في فضاء الحقول قصائدها:
ولا تحسبن العلم ينفع وحده
ما لم يتوج ربه بخلاق».

فالفراشة آية في الجمال. وهذه المشاعر تأتي من تجربة الشاعر نفسه، فهو يريد أن ينقل تجربته إلى إنسـان آخر القرن، وماذا تسـاوي كبرياؤه مع تواضـع وجمـال الفراشـة؟ فقد رسـمت أعذب

الكلمات على ورق الزعفران، وخطت أصابعها للجداول أغنية.

(٦)

يواصل الشاعر، بدون ملل، رسم هذه اللوحة الفنية، فيصير في إنسان آخر القرن السمو بالعلم والتحرر من كل قيود الجهل ونفض غباره من على الأكتاف، ليفتح النوافذ لتدخل الشمس إلى محيطه، فيبصر الحقيقة عن قرب، معتمداً على استفتاء قلبه فيما يسير عليه، وبدونه يتقمص الإنسان الشر الذي يمكن أن يقضي عليه وعلى الآخرين.

«فاخلع جلابيب عينيك،
واهبط دهاليز قلبك،
من قبل أن يسقط الضوء والأقحوان».

(٧)

إشارة الشاعر إلى أن قيامة الروح قد قامت، إنما جاءت من اضطراب النفوس وتناثر المبادئ وتسجُّر القيم، ينسجم معها اضطراب الأرض وتناثر النجوم وتسجُّر البحار، التي هي العلامات الكبرى للقيامة. وتلك النتوءات التي يمر بها إنسان آخر القرن تقف حجر عثرة أمام هذا الإنسان لتعوق تقدمه وتطوره، وبذلك تأتي النبرات الروحية لتضفي عليها الانسجام بين الكلمات ومعانيها.

«قد تكون المفاجأة الكبرى،
أن القيامة في عالم الروح قامت،
وصرنا نشاهد عبر التصاوير أوصافها،
لا مدن العصر باقية،
ولا زبد الأبجديات باقٍ».

(٨)

هالني شعور الشاعر حينما رسم زاوية من زوايا تلك اللوحة الفنية المفعمة بالعاطفة الجياشة، حينما أفرد زاوية لإنسان آخر القرن في اليمن.

«إن بروقاً يمانية تتنزل مسرعة،
خلف أجفاننا،
وطيوباً سقطرية اللون تسكب دهشتها وتحوم».

(٩)

ثم يختتم لوحته الروحية الممتعة، التي ما إن يصل المشاهد إلى نهايتها حتى تظهر علامات الإنابة على قسماته، زفرات الألم والأسى واللوعة والحزن على أنفاسه، ويستعد لما تحمله هذه المقاطع من دلالات. فقد اختتمها بعاطفة رقيقة تنبعث من فؤاد الشاعر المتألم على إنسان آخر القرن، وعلى حقارة وضعف هذا المخلوق الذي لم يكن شيئاً مذكوراً.

«أنت لا شيء قبل المجيء،
ولا شيء قبل الغياب.
أنت يا صاحبي حفنة من دخان».

(١٠)

وهكذا فقد جاءت القصائد التسع تجسد تجربة إنسان آخر القرن، تتوهج بالحسرات والألم على شرور هذا الإنسان، حاملة المعاني السامية، راسخة الخطوط المستقيمة المضيئة لكل جيل من بني الإنسان. وجاءت الألفاظ قوية ذات دلالة روحية، فلم تسقط في الفردية المغلقة، بل تندمج في ما ينهمك فيه الآخرون من الناس من هموم الوطن وأحلامه. إضافة إلى ذلك فإن القصيدة لا تصور خبرة شخصية بعينها، بل تندفع إلى التعبير عن دلالة أكبر وأعم وأشمل، وهي دلالة الحياة وعجز الكائن البشري، بكل جبروته وكبريائه وشروره، عن إدراك معاني وجوده وما ينطوي عليه من أسرار ربانية تجعله يقف حائراً أمام هذا الكون العظيم.